تربيةٌ لؤلؤيةٌ[(١)]

كتبت إليَّ سيدةٌ فاضلةٌ بما هذه ترجمتُه منقولاً إلى أسلوبي وطريقتي :

. . . أمّا بعدُ فهذا الّذي كنّا ظنَنّا وظَننْتَ ، فاقرأ الفصلَ الّذي انتزعته لك من مجلّة[(٢)] . . . وستعرف منه ، وتنكر ، وترى فيه النّهارَ مبصراً ، والليل أعمى . . . وتجدُ فتاة اليوم ـ على ما وقع بها من الظِّنَّة ، وكثرَ فيها من أقوال السُّوء ـ لا تشمُسُ[(٣)] على الرِّيبة ، ولا تريد أن تنتفيَ منها ؛ بل هي تعملُ لتحقيقها ، وتبغي مع تحقيقها أن يتعالم النّاس ذلك منها ، وتريد مع هذين أن يطلقوا لها ما شاءت ، ويسوِّغوها مُقارفة الإثم ، ويُقِرُّوها على منكراتها .

أما إنَّه إذا كانت أمَّهاتنا الجاهلاتُ هن أمْسنا الذّاهب بلا فائدة ؛ فإنَّ فتياتِنا المتعلِّمات هنَّ يومنا الضّائعُ بلا فائدة ، غير أنَّ الجاهلةَ لم تكن تكسُد ومعها الفضيلة ، فأصبحت المتعلِّمةُ لم تكد تُنفق ومعها الرّذيلة ، ولتاجِرٌ أُمِّيٌّ طاهرُ الاسم تتحرَّكُ سُوقه ، وتحيا خيرٌ من تاجرٍ متعلِّمٍ نَجس الاسم ، قد ماتت سوقه ، وخَمدتْ ، فما تتنفَّس من درهمٍ ، ولا دينارٍ .

لقد احتذيْنا على مثال المرأة الأوربيّة . فلمّا أحكمَتْه المتعلِّمات منّا ، كنَّ بين الشَّرق والغرب كالسَّبخةِ[(٤)] النّشّاشة من الأرض ، طرَفٌ لها بالفلاة ، وطرفٌ بالبحر ؛ فهي رملٌ في ماءٍ في مِلحٍ ، لا تخْلص لفسادٍ ولا صحَّة ، فاعتبر هذه ، وهذه ؛ فستجدهما بحكايةٍ واحدةٍ ، أصلاً ، وطبقَ الأصل .

* * *

وقرأت الفصل الّذي أومأت إليه السَّيِّدة ، وكان في كتابها ، فإذا هو لكاتبةٍ تزعم (أنّها ممّن رفعن علم الجهاد لحرِّيَّة المرأة) ، وإذا في أوله :

---

(١) انظر « عمله في الرسالة » من كتابنا : « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) مجلة « الأسبوع » المصرية سنة (١٩٣٤) . (س) .

(٣) « تشمس » : تمتنع ، وتأبى ، وتستعصي .

(٤) « السبخة » : الأرض ذات النز والملح ، ولا تكاد تنبت .

« كتبت آنسةٌ أديبةٌ في عددٍ سابقٍ من . . . الأغرّ تقول : « أجل ؛ لنفتِّش عن هذا الرَّجل كما يفتِّشون هم عن المرأة ، فإن أخطأناهم أزواجاً ، فلن نخطئهم أصدقاء !!! » وكتب بعد هذا أديبٌ فاضلٌ ، كما كتبت آنسةٌ فاضلةٌ ينحيان (كذا) هذا المنحى ، ويطرقان نفسَ السَّبيل (كذا) الَّتي اختطَّتها الآنسة الجريئة في غير حقٍّ ، الثَّائرة في نزَقٍ . . ثمَّ قالت بعد ذلك : « قرأت مقال الآنسة الثَّائرة في حَيويةٍ صارخةٍ !!! فجزعت ؛ لأنَّ (قاسم أمين) عندما رفع علم الجهاد من أجل حرِّيَّة المرأة ، و(وليُّ الدِّين يكن) عندما جاهر بعده في سبيل السُّفور ، و(هدى شعراوي) عندما رفعت صوتها عالياً تطالب بحرِّيَّة المرأة ـ ما ظنَّت ، وما ظنَّ واحدٌ من هذين الرَّجلين أن ثورة المرأة ستتطوَّر إلى حدٍّ أن تقفَ آنسةٌ مهذبة ، تكشف عن رأسها تبكي ، وتستبكي سواها معها ، من أجل الزَّواج . . . » .

* * *

وأنا فلست أدري والله مِمَّ تعجب هذه الكاتبة ، وإنِّي لأعجب من عجبها ، وأراها كالَّتي تكتب عبثاً ، وهزلاً ، وهُوَينى ، مظهرةً الجدَّ ، والقصدَ ، والغضب . أيْن أُطلِقَ للنِّساء أن يَثرن كما تقول الكاتبة ، وجاهد فلانٌ ، وفلانٌ في هذه الثَّورة ، فأخذتْ مأخذَها ، فانطلقت لشأنها ، فأوغلتْ في حرِّيَّتها ، فامتدَّ بها أمدها شوطاً بعد شوطٍ ، ثُمَّ جاء خُلُقٌ من أخلاقِ المرأة يُسفِر سفورَه ، ويرفع الحجابَ عن طبيعته ثائراً هو أيضاً في غير مداراةٍ ، ولا حذقٍ ، ولا كِياسةٍ ، يريد أن يقتحم طريقه ، ويسلك سبيله ، ثمَّ وقف على رغمه في الطَّريق منكسِراً ممَّا به من اللَّفة[1] ، والوثبة يتوجَّع ، يتنهَّد ، يتلذَّع بهذه المعاني ، وهذه الكلمات ، أيْن وقعَ ذلك جاءت كاتبةٌ من كاتبات السُّفور تقول للمرأة : جَرى عليكِ ؛ وكنتِ حرَّةً ، وتزعزعتِ ؛ وكنت ثابتةً ، وأفحشتِ ؛ وكنتِ عفيفةً ، وتعهَّرتِ ، وكنتِ طاهرةً ؟

أفلا تقول لها : سَفَرَت أخلاقُكِ ؛ إذ كنتِ سافرةً بارزةً ، وضاع حياؤك ؛ إذ كنت مُخلاةً مهمَلةً ، وغلوْتِ ؛ إذ كنتِ في المبالغة من البدء ؟

أفلا تقول لها : لقد تلطَّفتِ ، فجئتِ بالمعنى المجازيِّ لكلمة (العُزْي) ، ولقد أبدعتِ ، فكنتِ امرأةً ظريفةً اجتماعيَّة . . . .

---

(١) « اللفة » : الدوران .

مَخِيلةً[١] للشِّعر ، والفنِّ ، وحقَّقت أن واجب الظَّريفة الجميلة إعطاءُ الفنِّ غذاءً من . . . ، ومن . . . ، ومن لحمها . . ؟

نعم إنَّ قاسم أمين ـ (رحمه الله) لم يكن يظنُّ . . ولكن : أما كان ينبغي أن يظنَّ أن بعضَ الصَّواب في الخطأ لا يجعلُ الخطأ صواباً ؟ بل هو أحرى أن يُلبِّسه على الناس ، فيشبِّهه عليهم بالحقِّ وما هو به ، ويجعلهم يسكنون إليه ، ويأمنون جانبه ، فينتهي بهم يوماً إلى أن يَنْتسف خطؤه صوابَهُ ، ويغطِّيَ باطلُه على حقِّه ، ثم تستطرق إليه عواملُ لم تكن فيه من قبل ، ولا كانت تجد إليه السَّبيلَ ، وهو خطأٌ محضٌ ، فتمدُّ له في الغي مدّاً ، ثمَّ تنتهي هي أيضاً إلى نهايتها ، وتؤول إلى حقائقها ، فإذا كلُّ ذلك قد داخلَ بعضُه بعضاً ، وإذا الشَّرُّ لا يقف عندما كان عليه ، وإذا البلاء ليس في نوعٍ واحدٍ ، بل أنواعٌ .

ما يرتاب أحدٌ في نيَّة قاسم أمين ، ولا نزعم أنَّ له خَفيَّة سوءٍ ، أو مُضْمَر شرٍّ فيما دعا إليه من تلك الدَّعوة ، ولكنِّي أنا أرتابُ في كفايته لما كان أخذ نفسه به ، وأراه قد تكلَّف ما لا يُحسن ، وذهب يَقول في تأويل القرآن ، وهو لا ينفُذ إلى حقائقه ، ولا يستبْطِن أسرارَ عربيَّته ، وكان مناظِروه في عصره قوماً ضعفاء ، فاستعلاهم بضعفِهم ، لا بقوَّته ، وكانت كلمة الحجاب قد انتفخت في ذهنه بعد أن أفرَغت معانيها الدَّقيقة ، فأخذها ممتلئةً ، وجاء بها فارغةً ، وقال للنِّساء : غيِّرْنَ وبدِّلْنَ ، فلما أطعْنه ، وبدَّلن ، وغيَّرْن ، وجاء الزَّمنُ بما يفسِّر الكلمةَ من حقائِقه ، وتصاريفه ، لا من خيالاتِ المتخيِّل ، أو المتشيِّع ؛ إذ معنى التَّغييرِ والتَّبديل ؛ هو ما رأيتَ ، وإذا الحجاب الأول على ضلاله ؛ كان نصف الشَّرِّ ، وإذا المرأة الَّتي ربحت الشَّارع هي التي خسرت الزَّوج ! وإذا تلك الدَّعوة لم تكن نفياً للحجاب عن المرأة ! ولكن نفياً للمرأة ذاتِها وراء حدود الأسرة ، كأنَّها مجرمةٌ عُوقبَت على فساد سياستها ، وهي قارَّة[٢] في بيتها ، ولكنَّها مع ذلك منفيةٌ من مستقبلها .

كانوا يحتجُّون لنفي الحجاب بالفلاَّحات في سفورهنَّ ؛ وغفلوا أقبح الغفلة عن السَّبب الطَّبيعي في ذلك ، وهو أنَّ السُّفور إنَّما عَمَّهنَّ من كونهنَ لسنَ في المنزلة

---

(١) « مخيلة » : موضع الظن .
(٢) « قارّة » : مستقرة .

الاجتماعية أكثر من بهائمَ إنسانيَّةٍ مؤنَّثةٍ ؛ ومثل هذا السُّفور لا يكون على طبيعته تلك إلا في اجتماعٍ طبيعيٍّ فطريٍّ أساسُه الخلط في الأعمال ، لا التَّمييز بينها ، والاشتراك في شيءٍ واحدٍ ـ هو كسبُ القوتِ[١] ـ لا الانفرادُ بما فوق ذلك من أشياء النَّفس .

ولست أرى هذه اللَّجاجة[٢] ، أو « الحيوية الصَّارخة » الَّتي ثارت بفتياتنا ـ إلا تمرُّداً من طبيعتهنَّ على الأحوال الظَّالمة المتصرِّفةِ بها ، ويَحسبْنَه توسعاً من الطَّبيعة في الحرِّيَّة ، وطلباً للعالم كلِّه بعد الشَّارع ، وللحقوق كلِّها بعد نبْذِ الحجاب ، وهو في الحقيقة ليس إلا ثورةَ الطَّبيعة النِّسويَّة على خيبتها ممَّا أصابت من الحرِّيَّة ، والشَّارع ، والعالم ، والحقوق ، ورغبةً منها في أن تُحَدَّ بحدودها ، ويؤخذ منها العالم كلُّه بما فيه ، وتعْطى البيت وحدَه بما فيه !

إذا أنت كشفتَ جذور الشَّجرة لتطلقها بزعمك من حجابها ، وتخرجَها إلى النُّور ، والحرِّيَّة ، فإنَّما أعطيتَها النُّور ، ولكن معه الضَّعف ؛ والحرِّيَّة ، ومعها الانتقاض ؛ وتكون قد أخرجتها من حجابها ، ومن طبيعتها معاً ؛ فخذها بعد ذلك خَشباً ، لا ثمراً ، ومنظر شجرةٍ لا شجرةً ، لقد أعطيتها من علمك لا من حياتها ، وجهلت أنَّها من أطباق الثَّرى في قانون حياتها ، لا في قانون حجابها . أفليست كذلك جذور الشَّجرة الإنسانيَّة ؟

كلُّ ما يتغيَّر يسهلُ تغييره على من شاء ، ولكنَّ النَّتائج الآتية من التَّغيير لا تكون إلا حتماً مقضيّاً كما يُقضى ، فلن يسهل تبديلها ، ولا تحويلها ، ولا رَدُّها أن تقع ؛ وقد أخطأ جماعة السُّفور ، بل أنا أقول : إنَّهم جاؤونا بالجاهليَّة الثَّانية ، وإنَّهم طَبُّوا للمرأة المسلمة كذلك الطبِّ الذي أساسُه الرَّائحة الزَّكيَّة في البخور . . . ![٣]

* * *

وما هو الحجاب إلا حفظُ روحانيَّة المرأة للمرأة ، وإغلاء سِعرها في الاجتماع ، وصونها من التبذُّل الممقوت ، لضبطها في حدودٍ كحدود الرِّيح من هذا

---

(١) ولهذا لايكاد يغتني الفلاح ولو أيسر الغنى ؛ حتى يصون امرأته ، ويحجبها ، ويرتفع بمعناها في نفسه . (ع) .

(٢) « اللجاجة » : الإلحاح ، والعناد في الخصومة ، والتمادي فيها .

(٣) أي : طبّ الدَّجَّالين . (ع) .

القانون الصَّارم ، قانون العَرْض ، والطَّلب ، والارتفاع بها أن تكون سِلعةً بائرةً يُنادَى عليها في مَدارج الطُّرق ، والأسواق : العيون الكحيلة ، الخدود الورديَّة ، الشِّفاهُ الياقوتيَّة ، الثُّغور اللؤلؤيَّة ، الأعطاف المرتجَّة ، النُّهود الـ . . . أو ليس فتياتُنا قد انتهين من الكساد بعد نبذ الحجاب إلى هذه الغاية ، وأصبحن إن لم ينادِين على أنفسهنَّ بمثل هذا فإنَّهن لا يظهَرن في الطرق إلا لتنادي أجسامُهنَّ بمثل هذا ؟

وهذه التي كتبت اليوم تطلبهم مخادِنين ؛ إنْ أخطأتهم أزواجاً ، وتفتِّش عليهم تفتيشاً بين الزَّوجات ، والأمَّهات ، والأخوات ! هل تريد إلا أن تثبَ درجةً أخرى في مُخزِيات هذا التطوُّر ، فتمشيَ في الطريق مشيَ الأنثى من البهائم طَموحاً مَطْروقةً ، تذهب عيناها هنا وهاهنا ، تلتمس من يخطو إليها الخطوة المقابلة ؟

ما هو الحجاب الشَّرعيُّ إلا أن يكون تربيةً عمليَّةً على طريقة استحكام العادة لأسمى طباع المرأة ، وأخصُّها الرَّحمةُ ؟ هذه الصِّفة النَّادرة الَّتي يقوم الاجتماع الإنسانيُّ على نزعها ، والمنازعة فيها ما دامت سنَّة الحياة نزاع البقاء ، فيكون البيت اجتماعاً خاصًّا مسالماً للفرد ، تحفظ المرأة به منزِلتها ، وتؤدِّي فيه عملَها ، وتكون مَغْرِساً للإنسانيَّة ، وغارسةً لصفاتها معاً .

لقد رأينا مواليدَ الحيوان تولد كلُّها : إمَّا ساعيةً كاسبةً لوقتها ، وإمَّا محتاجةً إلى الحضانة وقتاً قليلاً ، لا يلبث أن ينقضيَ ، فتكدَح لعيشها ؛ إذ كانت غاية الحيوان هي الوجود في ذاته ، لا في نوعه ، وكان بذلك في الأسفل ، لا في الأعلى . غير أنَّ طفل المرأة يكون في بطنها جنيناً تسعة أشهر ، ثمَّ يولد ؛ ليكون معها جنيناً في صفاتها ، وأخلاقها ، ورحمتها أضعاف ذلك ، سنةً بكلِّ شهر ، فهل الحجاب إلا قصْرُ هذه المرأة على عملها ، لتجويده ، وإتقانه ، وإخراجِه كاملاً ما استطاعت ؟ وهل قصرها في حجابها إلا تربيةً طبيعيةً لرحمتها ، وصبرها ، ثم تربيةً بعد ذلك لمن حولها برحمتها ، وصبرها ؟

أعرف معلمة ذات ولدٍ تترك ابنها في أيدي الخدم بعد وصَاةٍ علميَّةٍ سيكولوجيَّةٍ . . . وتمضي ذاهبةً عن يمين الصَّباح ، ويمضي زوجُها عن شماله . . . وقد رأيت هذا الطِّفل مرَّةً ، فرأيته شيئاً جديداً غير الأطفال ، وله سِمَةٌ روحانيَّةٌ غير سمَاتهم ، كأنَّما يقول لي : إنَّه ليس لي أبٌ وأمٌّ ، ولكن ، أبٌ رقم (١) ، وأب رقم (٢) . . . !

* * *

وقد كنت كتبتُ كلمةً عن الحجاب الإسلاميِّ ، قلت فيها : « ما كان الحجاب مضروباً على المرأة نفسها ، بل على حدودٍ من الأخلاق أن تجاوز مقدارَها ، أو يخالطَها السُّوءُ ، أو يَتَدسَّسَ إليها ، فكلُّ ما أدَّى إلى هذه الغاية ؛ فهو حجابٌ ، وليس يؤدِّي إليها شيءٌ إلا أن تكون المرأة امرأةً في دائرة بيتها ، ثمَّ إنساناً فقط فيما وراء هذه الدَّائرة إلى آخر حدود المعاني » .

وهذا هو الرأي الذي لم يتنبَّه إليه أحدٌ ، فليس الحجابُ إلا كالرَّمز لما وراءه من أخلاقه ، ومعانيه ، ورُوحِه الدِّينية المَعْبديَّة ، وهو كالصَّدفة لا تحجبُ اللؤلؤةَ ولكن تربِّيها في الحجاب تربية لؤلؤيَّةً ، فوراءَ الحجاب الشَّرعيِّ الصَّحيح معاني التَّوازن ، والاستقرار ، والهدوء ، والاطِّراد ، وأخلاقُ هذه المعاني وروحُها الدِّينيُّ القويُّ ؛ الَّذي ينشىء عجيبةَ الأخلاق الإنسانيَّة كلِّها ، أي : صبر المرأة وإيثارَها ، وعلى هذين تقوم قوَّةُ المدافعة ، وهذه القوَّةُ هي تمام الأخلاق الأدبيَّة كلِّها ، وهي سرُّ المرأة الكاملة ؛ فلن تجد الأخلاقَ على أتمِّها ، وأحسنها ، وأقواها إلا في المرأة ذاتِ الدِّين ، والصَّبر ، والمدافعة ، إنَّها فيها تشبه أخلاق نبيٍّ من الأنبياء .

وقد مُحِقَ[1] الدِّين ، والصَّبر ، وتراخت قوَّةُ المدافعة في أكثر الفتيات المتعلِّمات ، فابتلِين من ذلك بالضَّجَر ، والملل ، وتشويه النَّفس ، ووقع فيهنَّ معنىً كمعنى العفن في الثَّمرة النَّاضجة ، وجهلن بالعلم حتَّى طبيعتَهن ، فما منهنَّ مَنْ عرفت : أنَّ طبيعتها سلبيةٌ في ذاتها ، وأنَّه لا يشدُّها ، ويقيمُها إلا الصِّفات السَّلبيَّة ، وملاكُها الصَّبرُ ، فروعُه وأصوله ، وجمالها الحياءُ ، والعفَّة ، ورمزُها ، وحارسُها ، والمعينُ عليها هو الحجابُ وحدَه ، إنَّه إن لم يكن في المرأة هذا ؛ فليست المرأة إلا بهذا .

وما تخطىء المرأة في شيءٍ خطأها في محاولة تبديل طبيعتها ، وجعلِها إيجابيةً ، وانتحالِها صفاتِ الإيجاب ، وتمرُّدِها على صفات السَّلب ، كما يقع لعهدنا ، فإن هذا لن يتمَّ للمرأة ، ولن يكون منه إلا أن تعتبرَ هذه المرأةُ نقائضَ أخلاقها من أخلاقها ، كما نرى في أوربة ، وفي الشَّرق من أثر أوربة ، فمن هذا

(١) « مُحق » : استؤصل ، ومُحي .

تُلقي الفتاةُ حياءها ، وتبْذَؤ[١] ، وتُفحِش ، إن لم يكن بالألفاظ والمعاني جميعاً ؛ فبالمعاني وحدَها ، وإن لم يكن بهذه ، ولا بتلك ؛ فبالفكر في هذه وتلك ، وكانت الاستجابة لهذا ما فشا من الرِّوايات السَّاقطة ، والمجلاَّت العارية ، فإنَّ هذه ، وهذه ليست شيئاً إلا أن تكون عِلم الفكر السَّاقط .

وعادت الفتاةُ من ذلك لا تبتغي إلا أن تكون امرأةَ روايةٍ : إمَّا فوق الحياة ، وإمَّا في حقائقَ جميلةٍ تختارها اختياراً ، وتفرضها فرضاً على القدَر ، وتنسَى الحمقاء أنَّها أحدُ الطَّرفين ، وليست الطَّرفين جميعاً ؛ فتحاول أن تقرِّرَ للحياة الجديدة تأويلاً جديداً لمعاني الشَّرف والكرامة ، والعِرض ، والنَّسب ، وما إليها ؛ فانسلختْ من كلِّ شيءٍ ، ثمَّ لمَّا أعجزها أن تنسلخ من غريزة الأنوثة ؛ طاشت طيشها الأخير ، فانسلخت من إنسانيَّة الغريزة .

* * *

أما إنَّ غلطة الرَّجل في المرأة لا تكون إلا من غلطة المرأة في نفسها . وهي قد أُعطيت في طبيعتها كلَّ معاني حجابها ، فإحساسُها محتجِبٌ مختبِىءٌ أبداً كأنَّه في إتْبٍ[٢] ، وملاءةٍ ، وبرقع ، وأفكارُها طويلةُ الملازمةِ لها ، لا تكاد تتركها ، كأنَّها منها في بيتٍ ، وطبيعةُ الحذر لا تبرحُها ؛ كأنَّها الحارسُ الثَّابتُ في موضعه ، القائمُ بسلاحه على حفظ هذا الجسم الجميل ، وطولُ التأمُّلُ مُوكلٌ بها ، كأنَّ عمله مصاحبةُ وحدتها ؛ لتخفيفها على نفسها ، والتَّرفيه منها ، والدُّنيا حول المرأة بمذاهب أقدارها ، ولكن لها دنيا في داخلها هي قلبُها ، تذهب الأقدارُ فيه مذاهبَ أخرى ، وضغطةُ الحياة طبيعيَّةٌ فيها ، حتَّى لا يُساوِرَها همٌّ[٣] من الهموم إلا صار كأنَّه من عادتها . والَّتي تمزِّقها الحياة كلَّما ولدت ، لا تكونُ الحياة إلا رحيمةً بها ؛ إذا ضغطتها !

فخروج المرأة من حجابها خروجٌ من صفاتها ، فهو إضعافٌ لها ، وتضريةٌ

---

(١) « تبذؤ » : يفحش قولها .

(٢) « الإتب » : هو بردةٌ تُشَقُّ فتلبس من غير كُمَّين ، وتُسمِّية الريفيات : (الملس) . (ع) .

(٣) « لا يساورها همّ » : ساورته الهموم : صارعته .

للرِّجال بها[١] **، وماذا تجدي عادة الحذر إذا أفسدتها عادة الاسترسال ، والاندفاع ؟** فيكون حذراً ؛ ليكون إغفالاً ، ثمَّ يكونُ إغفالاً ، ليعودَ الزَّلةَ ، والغلطة . ومتى رجع غلطةً ؛ فهذا أوَّل السُّقوط ، ومبدأ الانقلاب والتحوُّل ، وليس الفرقُ بين امرأةٍ نَفورٍ من الرِّيبة ، شمُوسٍ[٢] لا تطالع الرِّجالَ ، ولا تطمِعُهم ، وبين امرأةٍ فرُورٍ على الرِّيبة هَلوكٍ فاجرةٍ . . . ليس الفرقُ إلا حجابَ الحذَر أُسْدِلَ على واحدةٍ ، وانكشف عن أخرى .

وإذا قرَّت المرأة في فضائلها ، فإنَّما هي في حجابها ، ودينها ، وإنَّما ذلك الحجاب ضابطُ حرِّيَّتها الصَّحيحة باعتبارها امرأةً غيرَ الرَّجل ، فهو مسمَّى بالحجاب لاتصاله بالحرِّيَّة ، وضبطه لها ؛ ولكنَّ الضُّعفاءَ الَّذين يعرفون ظاهراً من الرَّأي لا يدركون مذهَبه ، ولا يحقِّقون ما ينتهي إليه ، ويَنفذون في حكمهم على الظَّاهر لا على البصيرة ـ هؤلاء لا يعرفون معنى الحجاب إلا في القماش ، والكِساء ، والأبنية ، كأنَّ حجابَ الأخلاق النَّسوية شيءٌ يصنعُه الحائك ، والباني ، والمستَعبد ، ولا تصنعه الشَّريعة ، والأدب ، والحياةُ الاجتماعيَّة ، فهم ـ كما ترى ـ حين يأتون بنصف العلم ، يأتون بنصف الجهل !

لم يخلق الله المرأة قوَّةَ عقلٍ ، فتكون قوةَ إيجابٍ ، ولكنَّه أبدعها قوَّةَ عاطفة ؛ لتكون قوَّة سلب ؛ فهي بخصائصها ، والرَّجلُ بخصائصه ، والسَّلبُ بطبيعته متحجِّبٌ ، صابرٌ ، هادىء ، منتظرٌ ، ولكنَّه بذلك قانونٌ طبيعيٌّ تتمُّ به الطَّبيعة .

وينبغي أن يكونَ العلمُ قوةً لصفات المرأة ، لا ضعفاً ، وزيادةً ، لا نقصاً ؛ فما يحتاج العالَم إذا خرج صوتها في مشاكله أن يكون كصوت الرَّجل ، صيحةً في معركةٍ ، بل تحتاج هذه المشاكلُ صوتاً رقيقاً ، مؤثِّراً ، محبوباً ، مجمعاً على طاعته ، كصوت الأمِّ في بيتها .

* * *

أيَّتها الفتاة ! إنَّ صِدْقَ [المرأة][٣] **تحت مظاهرها ، لا في مظاهرها الَّتي تكذب**

---

(١) « تضرية للرجال بها » : تدريبها ، وتعويدها على الاسترسال في الفساد.

(٢) « شموس » : ممتنعة ، أبيَّة .

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا ليستقيم المعنى المراد .

أكثرَ ممَّا تصْدق ؛ فساعدي الطَّبيعة ، واحجُبي أخلاقك عن الرَّجل ؛ لتعملَ هذه الطَّبيعةُ فيه بقوَّتين دافعتين : منها ، ومنك ، فيُسرع انقلابُه إليكِ ، وبحثُه عنك ؛ وقد يجد الفاسقُ فاسقاتٍ ، وبغايا ، ولكنَّ الرجلَ الصَّحيحَ الرُّجولة لن يجدَ غيرك .

وإنَّما سفورُك ، وسفورُ أخلاقكِ إفسادٌ لتدبير الطَّبيعة ، وتمكينٌ للرَّجل نفسِه أن يرجِفَ بكِ الظَّنَّ ، ويسيءَ فيك الرَّأي ؛ وعقابُك على ذلك ما أنتِ فيه من الكساد ، والبوار ، عقابُ الطَّبيعة لمستقبلك بالحرمان ، وعقاب أفكارك لنفسك بالألم !

* * *